نحن لا نصبر لأنّه لا محبّة فينا

الأم سلوانا (ڤلاد)

لن نستطيع الوصول إلى الله، وإلى شبه الله، وإلى الفرح الّذي نتوق إليه، ما لم نُنَمِّ صبرنا.

يُميّز الأب دوميترو ستانيلواي بين ثلاثة أنواعٍ من المحبّة: **المحبّة الطبيعيّة العاديّة**، أي محبّة الإنسان الساقط، الإنسان النفسانيّ؛ و**المحبّة المسيحيّة**، أي محبّة المسيحيّ الّذي يعيش في شركةٍ مع المسيح ومع أعضاء الكنيسة الآخرين؛ و**محبّة الله**، الّتي هي قدرته، وقوّته، وهي الله نفسه الّذي هو المحبّة والّذي يبذلُ نفسه من أجلي أنا أيضًا. وبناءً على ذلك، يمكنني -في مراحل وجودي المختلفة- أن أُحبَّ بهذه الطرائق الثلاث: بمشيئتي الطَّوعية في النَّوعين الأوَّلين، وبتآزر مشيئة الله مع مشيئتي لقَبول قوّته في النَّوع الثالث.

إنّ **المحبّة الطبيعيّة العاديّة النفسانيّة** هي قوّةٌ تتفعّل عند وجود مصلحة، وعندما نريد أن نُحِبّ، وعندما نملك دافعًا للمحبّة. وبذلك، تكون محبّةً أنانيّةً تُحرّكها رغبات "الأنا" وإرادته لدى الإنسان السَّاقط. فنحن عادةً ما نُحبُّ شخصًا ما عندما نستمتعُ بما يفعله من أجلنا، ونتوقّفُ عن المحبّة عندما لا يُعجبنا ما يقوم به من أجلنا. ونحن متفاوتون للغاية في هذا الشّأن: فبعض الناس أكثر قدرةً على المحبّة، وآخرون أقلُّ قدرةً عليها. وثمّة مَن يُحبّون إلى حدِّ التضحية بأنفسهم، لكنّ هذا يظلُّ شكلًا نفسانيًّا من أشكال المحبّة. فقد يُضحّون بأنفسهم بدافع الكبرياء، أو لذّة التميُّز والظُّهور، أو الشُّعور بالرِّضا لكونهم مُحبّين؛ ولذا فهذا لا يعني بالضَّرورة أنّهم تجاوزوا المحبّة الطبيعيّة.

للمحبّة الطبيعيّة مراحلُ مختلفة، تعتمدُ أيضًا على تربية كلّ شخص، لأنّ هذه الطاقات الّتي وضعها الله فينا تتطوّر بمؤازرة إرادتنا، وأيضًا بمساعدة مَن هم أكبر منّا سنًّا - أولئك الّذين ربّونا، أولئك الّذين علّمونا.

إذا نَشَأَ الناسُ في روح المحبّة، وإذا غُمِروا بالمحبّة وبودِلوا بها عندما عبّروا عن محبَّتهم، وإذا تعلّموا كيف يُفَعِّلون محبّتهم، فسيكون هؤلاء الناس أكثر قدرةً على المحبّة. أمّا الأشخاص الّذين جُرِحوا، أو أُهمِلوا، أو وُبِّخوا، أو أُسيء إليهم، فإنّهم يتوقون إلى المحبّة ويرغبون فيها، لأنّ ثمّة تَوْقًا إلى المحبّة في داخل كلّ إنسان

- لكنّهم يعجزون عن تقديم المحبّة. علاوةً على ذلك، ومع مرور الوقت، فإنَّهم حتّى لو تلقَّوا المحبّة من كثيرين حولهم سيَفشلون في إدراكها، ولن يُصدّقوا أنّها محبّة لأنّهم لا يعرفون ما هي المحبّة ولا يقدرون على تمييزها.

إذًا، هذه هي المرحلة الأدنى - مرحلة المحبّة الطبيعيّة، المحبّة النفسانيّة، المحبّة الّتي لا تُفَعِّلُها نعمة الله.

أمّا **المحبّة المسيحيّة** فهي قدرة الناس على بذلِ ذواتهم من أجل الآخرين، وعلى اقتبال الآخرين في داخل نفوسهم؛ إنّها قدرة الناس على المحبّة، وتكون هذه القدرة مدفوعةً من إرادتهم ومُفعَّلةً من نعمة الله في الوقت عينه. عندما ألاحظُ أنّني لا أستطيع أن أحبّ إذا كنتُ أشعر بالضَّجر أو إذا لم تمنحني المحبَّة إحساسًا بالرِّضا، أُدركُ حينها أنّ هذا شكلٌ سقيمٌ من أشكال المحبّة، وأُصلّي إلى الله لكي يشفيني. لقد صار إنسانًا، ومات، وقام، وصعد إلى السَّموات، ووهبَ لنا نعمته وجسده ودمه، نعمته الكاملة في الروح القدس، حتّى نتمكّن من اقتبال محبّته -قوّته هذه- لكي نُفَعِّلَ محبّتنا بمؤازرة هذه القوّة.

هذه المحبّة هي المحبّة الّتي وصفَها القدّيس الرسول بولس في الإصحاح 13 من رسالته الأولى إلى كورنثوس: المحبّة الّتي تحتملُ كلّ شيء، المحبّة الّتي لا تطلبُ ما لنفسها. اقرأوا هذا النشيد كلّ يوم، ولْنتحسَّرْ على أنّنا لم نُصبح مسيحيّين بعدُ من منظور المحبّة. غير أنّنا نريد أن نكون كذلك! في كلّ مرّةٍ نقرأ فيها هذا النشيد أو نسمعه تقفز قلوبُنا فرَحًا، لأنّ هذه هي الكرامة الّتي دُعينا إليها.

المحبّة الإلهيّة هي عندما يتقدّسُ الإنسان ويقول: «فَأَحْيَا لَا أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ» (غلاطية 2: 20)

وللمحبّة المسيحيّة عدّة مراحل. انطلاقًا من محبّتنا للمسيح، ومن أجله، نكفُّ عن الصُّراخ في وجه الآخرين، ونكفُّ عن جَرحهم، ونكفُّ عن إيذائهم. نفعلُ هذا لأنّنا نحبُّ المسيح، ولأنّنا شعرنا بمحبّته، ونُريد أن نستجيبَ لها. وهكذا، فإنّ هذا التَّوق إليه وإلى حضوره يُفَعِّلُ محبّتنا ويجعلُنا مُحبّين أيضًا. ثمّ ننمو، وننمو حتّى نَصِلَ إلى أعلى مستويات المحبّة المسيحيّة، وهي محبّة الأعداء. أمّا ما يأتي بعد ذلك، أي المحبّة الإلهيّة، فالقدّيسون هُم مَن سيُنيرونَ بصيرتنا بخصوصها حينئذٍ.

والآن فلنتكلّم على **الصَّبر**. المحبّة تتأنّى، المحبّة «تحتملُ كلَّ شيء» (1 كورنثوس 13: 7). فما هو الصّبر؟ الصّبر فضيلة، أي أنّه قوّةٌ وهبَها لنا الله لنكون على مثاله. الفضائل هي قوى -مثل قوّة المحبّة- يمنحُنا إيّاها الله عند الخلق كقدراتٍ كامنة، ثمّ نُفَعِّلُها بنعمته.

إنّ علاقة المحبّة هذه بيننا وبين الله لها مظهران: أحدُهما يُسمّى العناية، والآخر يُسمّى الدّينونة.

فالله، مِن خلال **عنايته**، يُربّينا ويقودنا إلى التشبُّه به، وإلى الفرح الّذي وعدَنا به والّذي دُعينا إلى المساهمة فيه. يدعونا عبر تعزيتنا، من خلال الأحداث المؤاتية ومدّ يد العون لنا في أوقات الضيق عندما نطلبه. هذه هي العناية الإلهيّة، إنّها مساعدةٌ إيجابيّةٌ إذا جازَ التعبير.

والجانب الآخر من محبّة الله هو **الدَّينونة**، الّتي من خلالها يُحبُّني الله ويعمل معي عبر الأحزان والآلام والأحداث غير السارّة. هذا لا يعني أنّه هو مَن يُرسل إليّ الأحزان، بل أنّه يُعلّمني ويمنحُني القوّة لأعرفَ ذاتي وأدرك عجزي عن المحبّة، وأتوب وأرجع إليه من خلال تلك الأحزان. إذًا، هذه هي الدّينونة.

الصّبر هو قدرةُ الإنسان على احتمالِ الأمور غير السارّة. ومن خلال هذا الصّبر نشفي نفوسَنا من أهواءِ الجزء الغضبيّ من النفس.

لدينا قوّتان في النّفس تُسمَّيان بالقوّتين المرتبطتَين بالأهواء: القوّة **الشهوانيّة** (أو الرغائبيّة)، والقوّة **الغضبيّة** (أو الحميّة عندما تُستخدَمُ استخدامًا صحيحًا). بالقوّة الشهوانيّة، نبحثُ عن اللّذّة، وعمّا يمنحُنا المتعة - وهذه هي رغباتنا الأهوائيّة. أمّا القوّة الشهوانيّة السليمة فهي أن نشتهي الله وكلّ الصالحات الّتي نختبرها في حضرته.

والجانب الآخر، البُعد الآخر لنفسنا هو القوّة الغضبيّة - وتُسمّى أيضًا الغضب. إنّها القدرة والقوّة على رفضِ الشرّ. لقد منحَنا الله هذه القوّة لنرفضَ بها الشرّ؛ فعندما خلقَ الله آدمَ في جنّة عدن، كان الشرُّ موجودًا، وكان الملاكُ الساقطُ شرّيرًا بالفعل ومستعدًّا لتجربة الإنسان أو محاولة إيذائه. وكان الإنسان يملكُ هذه القوّة الغضبيّة ليرفض بها الشرّ.

وفي الوقت عينه، تساعدُنا القوّة الغضبيّة أيضًا على تعزيز رغباتنا، وتمنحُنا الحميّة. قد أرغب في القيام بأمرٍ ما، لكنّي لا أملكُ حماسًا، لا طاقة لديَّ، فتكون القوّة الغضبيّة هي الطاقة الّتي أحتاجُ إليها لدعمِ رغباتي.

بناءً على ذلك، الصبر هو الفضيلة الّتي من خلالها أشفي نفسي، أنا الإنسان، من أهواء قوّتي الغضبيّة وأمراضها، وهي الغضب والحزن، اللّذين تتفرّعُ منهما خطايا وأهواءٌ كثيرة أخرى. إنّنا نشفي أنفسَنا من هذه الأهواء بالصّبر.

لا نستطيع الوصول إلى الله، وإلى شبه الله، وإلى الفرح الّذي نتوقُ إليه، ما لم نُنَمِّ صبرنا، وما لم نحبّ تربية الله الّتي هي دينونته، وما لم نحبّ الألم الّذي يمتحنُ الله بوساطته كلَّ واحدٍ منّا ويمنحُنا الفرصة لنعرفَ ذواتنا، ولنرى كم نحن قريبون أو بعيدون عن الله، ولندرك ماذا نريد حقًّا: أعطايا الله أم الله نفسه؟ وحينها نعرفُ أنفسَنا من خلال هذا الألم، ونُقوِّم مسارَنا إذا كنّا حقًّا نبتغي الله وفرحه.

وهكذا، فإنّ المحبّة تحتملُ كلّ شيء. لم نكن لنملك القدرة على الاحتمال لو لم تكن لدينا المحبّة. عندما لا نطيقُ سماع بكاء طفلٍ، أو عندما يفعلُ شخصٌ ما شيئًا لا يُعجبنا، أو عندما يُسيءُ إلينا أحدٌ، فهذا يعني أنّنا لا نملك المحبّة. ودَعكُم من عدم امتلاكنا المحبّة تجاه أعدائنا، ثمّة لحظاتٌ بل وأيّامٌ نفتقر فيها إلى المحبّة تجاه أولادنا، الّذين بوسعنا أن نُضحّي بحياتنا من أجلهم عندما نكونُ في كاملِ وعينا واتّزاننا. نفتقر إلى الصّبر ولذا لا نحبُّ أمّهاتنا والأشخاص الأعزّاء على قلوبنا. نحبُّهم ونبكي عليهم إن فقدناهم، لكنّنا لا نملك المحبّة لأنّنا لا نصبر على ضعفاتِهم. ولا نصبر لأن لا محبّة فينا. كما ترون، إنّها حلقةٌ مفرَغة.

ولذا، علينا أن نُعنى بهذه الفجوة الّتي في داخلنا، وأن نملأها ونُغذّي قدرتنا هذه بنعمة الله وقوّته. فبِخلاف ذلك، لن نملك أيَّ شيءٍ لنُقدّمه.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Mother Siluana Vlad (2020). “We don't have patience because we don't have love”, in *Sayings of the Romanian Elders*. Retrieved online from Substack.